International Journal of Humanities & Social Sciences
Volume (5) – AUGUST 2018 SJIF Impact Factor 3.38
ISSN1858-838
المجلة الدولية للعلوم الانسانية والاجتماعية
العدد الخامس-أغسطس 2018

مقارنة منظور الجمال بين التجاني يوسف بشير وإدريس محمد جمَّاع

د. المكاشفي إبراهيم عبد الله محمد (أستاذ الأدب بجامعة الخرطوم – أستاذ مساعد)

د. الأصم بشير التوم بشير (أستاذ الأدب بجامعة الخرطوم – أستاذ مساعد)

المستخلص:

هدفت الدراسة إلى الكشف عن نقاط التلاقي بين التجاني وجمَّاع في علاقتهما بالجمال في شتَّى ضروبه ومظاهره الطبيعية منها والبشرية، حبّاً وتعلُّقاً ووصفاً، وذلك من خلال تحليل أشعارهما التي جاءت في هذا الغرض. اتَّبع الباحثان المنهج الوصفي التحليلي، وتوصَّلا بعد البحث والدراسة إلى نتائج عدَّة، أهمُّها: إنَّ التجاني وجمَّاع مأخوذان بالجمال مندهشان به لا يصدهما عنه مانع. كلاهما يبحث عن الجمال في كل دقائق الكون لتصويره ووصفه والاستمتاع به. إنهما يسموان بالجمال الإنسانيّ الحسيّ إلى ما وراءه من إشراقات وأسرارٍ ومعانٍ. إنهما دعوَا إلى حرية الجمال ودافعا عنه، وبلغا في حبه مبلغ التعبد والتقديس وتقديم النفس له قرباناً وعوذاً.

الكلمات المفتاحية: الجمال ، التجانى يوسف بشير، ادريس جماع

Abstracts:

The study aimed at rereading the points of similarities between Altigani and Gamaa in their relationship to beauty in poetry in all its types, its natural aspect and human aspect and also in terms of their love, affection and description for beauty. This was done through analyzing their poetries that involve beauty. The two researchers adopted the descriptive analytical methodology. After studying and searching, they came to many

findings, the most important are: Both Altigani and Gamaa are fond of beauty and they are surprised at it nothing could stand between them and it. Both of them seek for beauty in every single detail. Of the universe, in order to draw picture, describe and enjoy that detail. The two poets took the sensational human beauty beyond its brightness's, secret and meaning. The poets also called for freedom of beauty and thy defended it. Their love for beauty reached the level of worship and sanctification, they could sacrifice themselves for beauty because of its charm.

المقدمة:

هل الشعر إلا نزعة جمالية إنسانيةٌ، وما تبقى منه حكمة إلى جانب الأغراض الأخرى؟ فالجَمال كان – ولا يزال – هبة ربانية تسحر القلوب، وتأخذ بالألباب، وتُسكِر النفوس وتأسرها. وكلُّ شاعرٍ رسول للجمال بطبعة، وداعية له، ولا يألو جاهداً أن يحتويه في شعره وصفاً وتمجيداً وتغنِّياً. والشعراء سواء في حبِّ الجمال، ولكنهم يتفاوتون في التعبير عنه، وفي درجات هيامهم وولههم به، ينضاف إلى ذلك ما يمتاز به شاعرٌ بعينه من رهافة الحسِّ وسلامة الذوق، وما يمتلكه من أدوات اللغة والتعبير التي يحكم تفاصيلها على المعاني فيبرز مفاتنها؛ فيشار في ذلك لهذا الشاعر وحده ولا يُلتفت إلى الآخرين.

من هذا المفهوم جاء اختيار الباحثَين لدراسة الجمال – وصفاً وتحليلاً – في شعر التجاني يوسف بشير وإدريس محمد جمَّاع؛ لتميُّز تجربتيهما في التعبير عن الجمال، وحبهما إياه، وولههما به. ولا مندوحة بدءاً من التعريف بحياة كلٍّ من هذين الشاعرين؛ إشارة إلى ما يقارب بينهما عامة، وتحقيقاً إلى ما يجمع بينهما خاصةً.

المبحث الأول: التعريف بالشاعرين

أولاً – التجاني يوسف بشير:

وُلد التجاني التجاني بمدينة أم درمان من أبوين جعليين، من فرع الكتياب، حفظ القرآن يافعاً، وطلب العلوم من معهد أم درمان العلمي، وبرز في الأدب واشتهر به هذه الشهرة. اشتغل بالصحافة، وثقف ضروباً من الخطابة جعلته أكثر استعداداً للبحث والمناظرة والحديث بلغة يتمنى الكثيرون لو كان لهم منها نصيب [10].

ولما كان التجاني واسع الأفق، ثائراً متمرداً على التقليد، أخذ يضيق بالمعهد وشيوخه ومنهجه حتى تركه ليخرج إلى الحياة بلا شهادة تؤهله للوظيفة آنذاك؛ فعمل بشركة (سنجر) ثم اتصل بجريدة ملتقى النيلين مصححا ومحررا، وظل يتردد بين الخرطوم وأم درمان حتى أنشأ محمد عبد الرحيم مجلة أم درمان وعيَّن التجاني مشرفاً على تبويبها وتصميمها [9]

وما من مجلة أو جريدة ظهرت في حياة التجاني إلا أتحفها بشعره ونثره، فقد كانت مجلتا الفجر والرسالة شاهدتين على رفده للمجلات بمقالاته الأدبية القيمة، وكانت الأخيرة لا تنشر إلا للأكْفاء المتفردين في العالم العربي [9] وكانت نفس التجاني توَّاقة للعلم شغوفةً به، فقد سعى جاهداً مجدّاً في السفر إلى مصر؛ لينهل علما من معاهدها التي كانت محطَّ آمال الطلاب آنذاك، غير أن الظروف أبت وحالت دون رغبته في ذلك، فقد رفض والده سفره إلى مصر في المرة الأولى لأسباب سياسية، فجاء تأثير هذا الرفض قاسياً على نفس التجاني وروحه الطموحة؛ حيث تحطمت آماله وعبَّر عن هذه الخيبة في أبياته المشهورة [3]

أملٌ ميّتٌ علـــى النفس ألحدْ * تُ له من كلاءة الله قبــرا**

زهقت روحه وفاض شعاعــاً * قبلما ينفذ الطفولة عمــرا**

كنتُ أحيا علــى ندًى منه يسًا * قطُ برداً على يديَّ وعطرا**

ثمَّ أودى يا ويحه! ضاقت الدُّنْـ * يا به جهداً واحتمالاً وصبرا**

أملي في الزمان مصرُ فحيّا الْـ * ـلهُ مستودع الثقافة مصرا**

نضَّر الله وجهها في ما تـــزْ * دادُ إلا بعداً علــيَّ وعُسرا**

ثمَّ سمحت له الظروف – فيما بعد – بالسفر إلى مصر؛ غير أنَّ دار العلوم أوصدت أبوابها دونه؛ فاصطدم بخيبة أخرى ليعبِّر عنها قائلاً: (5)

إذا دار العلوم علـــــيَّ ضاقت * وبـاعدني المـعلِّمُ والمربِّي**

وأعرض أو نأى ابن الشرق عني * أيسمح لي بهذا الحقِّ غربي؟!**

لقد وسعت بني الأقطـــار دهراً * وغصَّ فناؤها مـن كل شعْبِ**

وإني كنت أحسبني جـــــديراً * أتصبح نسبةُ السـودان ذنبي؟**

وتمنعني عـــن الزُّلفى عجيباً * فليتي كنت مـن تُرك وصِرْبِ**

ولا يلبث أن ينتهي من إنشادها حتى يشفق عليه مستمعه؛ فيحقق أمنيته في الالتحاق بدار العلوم، فيعيقه المرض عن البقاء هناك ويؤمر من قِبل الطبيب بالعودة إلى السودان؛ فيغادر مصر بلا عودة.(9) ولمَّا عاد إلى السودان لزم سرير المرض إلى أن توفَّاه الله في 1937م، مخلِّفاً تركته الخالدة ديوانه " إشراقة" (9)

ثانياً: إدريس محمَّد جمَّــاع.

كان مسقط رأسه حلفاية الملوك عام 1922م، ووالده هو المانجل محمد جمَّاع، شيخ العبدلاب، وإدريس هو ابن خالة الشاعر المعروف: محمد محمد علي، وعمَّته عائشة بنت الشيخ جمَّاع شاعرة مشهورة، ومن أبرز قصائدها " الجنزير في النجوم" وبعد وفاة والده أجمعت الأسرة والعشيرة على اختياره شيخاً للقبيلة، ومُنح لقب (المانجل) وأُجلس على

(الكَكَر) في احتفال كبير، ونسبةً للظروف الصحية التي ألمَّت به آلت المشيخة إلى أخيه الأكبر [8] بدأ إدريس تعليمه بالخلوة، ومن ثّمَّ مدرسة الحلفايا الأولية، ثمَّ مدرسة أم درمان الأميرية الوسطى، والتحق بعدها بمعهد بخت الرضا وتخرَّج فيه عام 1941م، ليعمل مدرساً بمدرسة (تنقسي) ومن بعدها مدرسة الخرطوم شرق، ومدرسة الحلفايا [6] وكان إدريس في مطلع حياته اجتماعياً محبوباً، وهو من مؤسسي نادي الحلفايا الرياضي الثقافي الاجتماعي الذي عُهدت إليه رئاسته [6]. سافر إلى مصر سنة 1947م، وحصل فيها على درجة الليسانس في اللغة العربية عام 1951م، ثمَّ نال دبلوم التربية وعلم النفس، وعاد إلى السودان وعيّن معلماً بمعهد شندي، ثم نُقل بعد ذلك إلى معهد بخت الرضا وعمل به معلماً للغة العربية في كورس السنتين لمعلمي المدارس الوسطى، وفي عام 1956م نُقِل لمدرسة الخرطوم الثانوية ليعمل بها معلماً للغة العربية [6] . وإلى جانب شاعريته كان إدريس رسَّاماً بارعاً وفنَّاناً تشكيلياً، وقد صمم غلاف ديوانه بنفسه، وقد أحبَّ الجمال بصورة مطلقة، ثمَّ انتابته بعض حالات الاكتئاب ولازمته بقية حياته حتى توفَّته المنية في 1980م [6]. ولا يخفى على أحدٍ زهد جمَّاع في الحياة، وقد أشار إلى ذلك الهادي آدم – وهو أحد معاصريه – في بعض قصائده التي أسماها " إلى أخي جمَّاع" يقول: [11]

ففيم الذهولُ المُرُّ والكـون يقظةٌ * وفيمَ شرود القلب عن غير شارد**

أفقْ وامـــلأ الدنيا غناءً وبهجة * فأنت علـــــى آلائها خير شاهد**

فما أنت منـــــها إنَّ دنياك جنَّةٌ * هي الخلد لا يرتادها غير خـــالد**

أجمَّاع ما عهدي بك الدهرَ غافلاً * وإن كان ما تبدي تجـــاهل عامد**

تشاغلت عمَّا يكسب الناس ميعةً * بتعميق عيش في الضحالة جاهد**

المبحث الثاني: أوجه التشابه بين نظرة الشاعرَين لفنِّهما وللحياة عامةً:

تتقارب نظرة كلٍّ من التجاني وجمَّاع إلى فنهما وإلى الحياة عامة بصورة لافتة ومثيرة للدهشة والعجب ويمكن إبراز هذا التشابه في النقاط التالية:

1 – نظرتهما إلى فنِّهما "شعرهما":

فأول ما يلتقيان فيه إخلاصهما وتفانيهما في الفنِّ، فكلاهما مخلص متفانٍ في شعره، وهبَه نفسَه وروحه وقدَّم له عمره قرباناً. يقول جمَّاع : [1]

تذهب الساعات من عمـ * ـريَ قربانـــاً لفنِّـــي**

هبةٌ للفـــنِّ دنيـــا * يَ وروحي غير أنِّي ...**

ولا يتردد إدريس في أن يحترق أسَى ليسكب من دمه ألحاناً عطرةً، يقول: [1]

من دمي أسكب في الألـ * ـحانِ روحاً عطِرهْ**

وشجونـــي وحياتـي * بالأسـى مستعِرهْ**

وقد سبقه التجاني إلى هذه المعاني في مثل قوله: [3]

من دمي يستدرُّها حرُّ أنفا * سي لهيباً أسميته إشراقهْ**

ويجتمع إلى ذلك أنَّ كلاهما يؤمن بخلوده في شعره وفنِّه، وكأنَّ كلّاً منهما يشير إلى أنَّ من يريد أن يعرف حقيقته فعليه أن يتجاوز تفاصيل الحياة العادية التي عاشها ويلتمسه في شعره، يقول التجاني في هذا السياق: [3]

قال فيما أسرَّ لي من حديثٍ * ممتعٍ للنفوس في استرجاعهْ**

أنا إن متُّ فالتمسنيَ في شعْـ * ـري تجدنـــي مدثَّراً برقاعهْ**

وتأتي نظرة جمَّاع مطابقة لنظرة التجاني؛ إذ يقول جمَّاع: [1]

فالتمسني في غير رسميَ واسمي * ترني بادياً وتُبْصر وسمـــي**

غير أنـي أراهمـــــا زاملاني * فوفاءً أبقيهمـا فـي نظمي**

ويتبدَّى خلوده جليَّاً في شعره وفنِّه حين يقول: [1]

لحظاتٌ من حياتـــي * أودعتْ سرَّ الخلودِ**

ولقد تعبر أعمـــا * راً إلى غير حدودِ**

أنا من نفسي إلى غيـ * ريَ يمتدُّ وجـودي**

فيمتدُّ وجوده ويتسنَّى خلوده بتلك اللحظات التي يخلدها في شعره.

2 – الزهد في الحياة والتبرُّم منها:

عايش الشاعران ظروفاً صعبة في الحياة؛ جعلتهما يضيقان بها ذرعاً، ويكثران من الشكوى والتبرُّم منها، والسخط عليها، فالتجاني يرجع ضيقه وسخطه بالحياة إلى ما يشعر به من مفارقته لمحيطه ومجتمعه معرفياً وثقافياً، عبَّر عن ذلك في قوله: [3]

يا أديباً مضيعا من بني الدنْـ * يا بحسب الأديب محض انتجاعهْ**

أنت يا رائد القريض وما أنْـ * ـتَ بسقط الورى ولا من رعاعهْ**

ضاع ويحَ الذي يغار على الشعْ * رِ وويـــح الأديب يوم ضياعهْ**

ومن شعره الذي يجري في هذا المضمار قوله: [3]

في يميني يراع نابغة الفُصْـ * ـحى وكلُّ امرئٍ رهينُ يراعهْ**

وعلى هامتي أكاليـل سحْبَا * نَ وفـــي شرتي أداة مصاعهْ**

وهكذا يتجلَّى سخط التجاني على الحياة وأهلها الذين لا يقيمون له وزناً، ولا يعظمون له شأناً، في حين أنه نابغة عصره وسحبان زمانه، ولا عجب إن ترك التجاني للناس دنياهم وما فيها من بريق خدَّاع، جاء في بعض أبياته: [1]

وهبتُ للناس من دنيا مطامعهم * ما عندها ليَ من نُعمى وإقبالِ**

وعشتُ أنعم في عُدمي ويسعدني * أنّي تخففت من إصري وأثقالي**

جانبتُ باطل أيامي وزهَّدنـي * فيها خوادع ما يطفو مـن الآلِ**

وليس هذا – وحده – هو الدليل على معاناة التجاني وتبرُّمه من الحياة، بل قد اعتراه القلق ورمته أسهم الشكوك، وعصفت به المذاهب الدينية والفلسفية، وجعلت منه شريدا تائهاً بينها، لا قِبلة له يطمئنُّ إليها، وإذا قُدِّر وجود القِبلة فلا إمام يأتم به، شيءٌ من هذا حدث للتجاني فاعتصم بعقله يتأمَّلُ. وكان كلما اعتصر عقلُه قطرةَ يقينٍ أذابتها حرارة شكِّه، وإن أردت آيةً على ذلك فانظر إلى قوله: [1]

يا مظلم الروح كم تشقى على حُرق * مما يكـابد منـــك القلب والروحُ**

مضى بك العقل لم تسعد به أثــراً * واعتادك الشك إذ ضاقت بك السوحُ**

وانتهى الأمرُ بالتجاني إلى الشكِّ في الوجود والحيرة فيه، وتوزعت نفسه بين غياهب الشكِّ وألَمه، وشعاع اليقين وبَرده، وقد صوَّر ذلك في قوله: [1]

أشكُّ يؤلمني شكِّـي وأبحث عن * برد اليقين فيفنى فيــه مجهودي**

أشكُّ لا عن رضى عني ويقتلنـــي * شكِّي ويذبل عن وسواسـه عودي**

الله لي ولصرح الديــن من ريبٍ * مجنونة الرأي ثارت حول معبودي**

إن راوغتني في نسكي فكم ولجت * بي المخاطر فـــي ديني وتوحيدي**

وعبَّر التجاني عن تقلباته بين اليقين والشكِّ في أبيات أخرى، منها: [1]

بين اثنتين أُسرُّ أم أبكي * برد اليقين وجذوة الشكِّ**

والعقل ينصب من حبائله * نصباً معاقدها من الشوكِ**

ولا يخفى أن مصاب التجاني كان بسبب عقله، الأمر الذي جعله يحنُّ إلى أيام الصبا، ومهد الطفولة وبراءة القلب وصدق النوايا والسرائر؛ فذلك – في نظره – هو الإيمان الحقُّ الصادق، يقول: [3]

كنتُ بين الصبا نعمت بإيما * نِ رضًى وأين عهد صبايا؟**

يا صبياً كفَّنته أمسِ منـــي * آلِهيَّ الضمير عفَّ الحنايا**

قدسيَّ الرداء عفَّ الجلابيـ * ـبِ حنيفاً منزهاً عن خطايا**

وكأن التجاني بذلك يشير إلى عجز عقله الذي امتطاه وصولاً إلى دارة الإيمان، ومستقر اليقين؛ فيلهج داعياً: اللهم إيماناً كإيمان الطفل!

ومهما يكن من حال فلم يكن جمَّاعٌ – وإن عقَّه الدهر – ليداني التجاني قلقاً وتبرُّماً وبؤساً في الحياة، غير أنَّ جمَّاع مرهف الحسِّ، رقيق الشعور، لم يحتمل ظلم الحياة ومفارقاتها العجيبة؛ فذبح نفسه أسًى، وأظلمت حياته وتحولت إلى مأساة عبَّر عنها في مثل قوله: [1]

دجى ليلي وأيامـــي فصول * يؤلِّف نظمها مأســـاة عمري**

حيـــاة لا حياة بـــها ولكن * بقية جذوة وحطـــام عمرِ**

خطوب لو جهرت بها لضاقت * بها صور البيان وضاق شعري**

وهذه الخطوب التي انتابته في حياته جعلته يقرر أنه خلق من طينة البؤس، حيث قال: [1]

خلقت طينة الأسى وغشتها * نار وجد فأصبحت صلصالا**

ثم صاح القضاء كوني فكانت * طينة البؤس شاعراً مثَّالا**

وقد أفضى به بؤسه إلى استعذاب الموت – على بغضه – وتفضيله على الحياة. يقول: [1]

إذا متُّ لا تحزني إننـــي * تراب يعود إلى بعضه**

لقد جعلتني ليالي العذابْ * ألذُّ الممات على بغضه**

غير أنه امتاز عن التجاني – رغم السخط والتبرُّم – بشعاع من الأمل يُلْمح من حين لآخر، تجده في نحو قوله: [1]

يغالبُ محنتي أملٌ مشعٌّ * وتحيا في دمي عزمات حرِّ**

وقوله: [1]

وفلسفتي في الظلام الكثيف * ترى لمحة من سنى ومضه**

ولا تعجب إذا علمت أنَّ ظلال هذه المعاناة – بصورها المختلفة – التي تراءت في شعرهما قد عاشاها في حياتهما واقعاً مريراً وبؤساً أمرَّ!

3 – النزعة الصوفية:

لم تخلُ أشعار التجاني وجمَّاع من نزوعٍ صوفيٍّ واضحٍ، وإن كان الأمر متفاوتاً بينهما؛ فالتجاني في تصوفه ينزع نزوعاً فلسفياً في جملته ومراميه، وأما جمَّاع فنزعته الصوفية لعلَّ مردها إلى رهافة حسِّه ورقة طبعه. ولنقف عند بعض معاني التصوُّف الفلسفي في أبيات التجاني التي منها: [3]

كلُّ ما في الكون يمشي * فـــي حنايـــاه الإله**

هذه النملة فـــي رقْـــ * ـقَتهـــا رجع صداه**

هو يحيا فـي حواشيـــ * ـها وتحيـــا في ثراه**

وهي إن أسلمت الـــرُّو * حَ تلقتهـــا يـــداه**

لم تمت فيها حياة اللّـ * ـهِ إن كنـــت تـراه**

وظاهر الأبيات تشير – ضمنياً – إلى فكرة الحلول والاتِّحاد، ولعلَّ باطن المعنى يشير إلى تجلِّي قدرة الله وعظمته وتقديسه ليس إلا. وليس ببعيد من ذلك – في المعنى – قول جمَّاع: (1)

لـيس لله من مكـا * نٍ لـه يرتقي الدعاءْ**

قد تعالى عن المكـا * نِ وإن كان في السماءْ**

وبين هذين الرأيين تتردد موجة التصوف لدى التجاني وجمَّاع، ولا تختلف إلا قليلا.

4 – يشتركان في تعليق آمالهما بمصر: حيث كانت في زمانيهما محط آمال طلاب العلم، وقِبلة أنظار الطامحين، فلا غرو أن تهفوَ لها أنفسهما، غير أن التوفيق حالف جمَّاعاً ولم يحالف التجاني فضاع أمله وكتب يقول: (3)

أملي في الزمان مصرُ فحيًّا الْـ * ـلهُ مستودع الثقافة مصرا**

نضَّر الله وجهها فهي مـا تزْ * دادُ إلا بعداً علـيَّ وعُسرا**

وأما جمَّاع فقد نال حظّاً وافراً من العلم في معاهد مصر؛ ولذلك نراه يلهج محتفيا بتحقيق هذا الأمل قائلاً: (1)

أملي وهبت لي الحيا * وكنت في سجن الألمْ**

أطبق جناحك قد بلغـ * ـتَ فهذه أرض الهرمْ**

5 – تجارب الحبِّ غير الموفقة: عاش الشاعران في مجتمع تقليدي محافظ، الحبُّ فيه جريمة منكرة، ولا مجال فيه لرؤية المحبوبة إلا لماماً، وإذا تحققت الرؤية تعذر اللقاء لا محالة، وإذا تحقق اللقاء ترتب عليه مزيدٌ من الحرمان، هذا إن لم يكن الصدُّ والهجران صادراً من المحبوبة نفسها، كلُّ ذلك وهما الشاعران المرهفان!

وهنا تتفاوت معاناة الحبِّ بينهما، فالتجاني أحبَّ فتاة نصرانية، وما أبعد الشّقَّة بينهما! وما أشدَّ البعد بين شخصية التجاني الغامضة المعقدة، وشخصية فتاته اللاهية العابثة، وإليك بعض الأبيات التي تخرج من صلب هذه المعاناة ولكنها تصورها تصويراً صادقاً حقاً، يقول التجاني: (3)

أجدُّ وتعبث فيـــما أجــد *** وتهرب مــن وجهه أو تندْ

رُميت بـها في صميم الوجود *** وأعلنتها فجـر يوم الأحدْ

وضعت يدي حيث كان الفؤاد *** وحيث يكون الهوى المتـقدْ

وأرسلتها لك فــي لوعـــة *** لعلك تعـرف مـــاذا أجدْ

أحبك حتـى تبيد السمـــــاء *** ويبتلـع النيِّـــرات الأبدْ

وعطفاً على ما سبق فالتجاني جادٌّ في حبه، صادق فيه غير أن فتاته عابثة لاهية، وقد يأخذ هذا اللهو والعبث أبعاد الصد والهجران من قِبل المحبوبة، واتِّقاد الشوق وشدة التعلق من قِبل الشاعر، وقد عبَّر التجاني عن ذلك في قوله:(3)

في غراري وكنت حسب غراره *** من يوازي صبابتي بازورارهْ

وفي قوله: (3)

لا تثأري من فؤادي *** كفــى بدمعيَ ثارا

حسبي افتتانا تجنِّيـ *** كِ نفرة وازورارا

وأما جمَّاع فتجربته مشهورة، وقد كان ثمنها فادحاً في حياته، وتغنى جمَّاع بهذا الحب الضائع، وبكى ربيعَه، وتحسَّر على فردوسه المفقود، وجنته التي كان نعِم بها حيناً ثم ضاع الطريق إليها في زحام البعد والصدِّ والهجران؛ فانطوى على أمسه وما خلَّفه في قلبه من حسرات، يقول: (1)

في ربيع الحبِّ كنَّـــا *** نتساقــــى ونغنِّـــــي

نتناجى ونناجي الطْـ *** طَيـرَ من غصن لغصن

ثم ضـــــــاع الأمس منا *** وانطــــوت في القلب حسرهْ

إننا طيفان في حلـ *** مٍ سمــاويٍّ سرينا

واعتصرنا نشوة الحبْ * بِ ولكن ما ارتوينا**

إنه الحب فلا تســـ * ألْ ولا تعتب علينا**

كانت الجنة مســرا * نا فضاعت من يدينا**

ثم ضــــــــاع الأمس منا * وانطـــــــوت في القلب حسرهْ**

وهذه البكائية على الحب الذي ضاع وعلى المحبوب الذي نأى تتجلى بوضوح في قوله: (1)

شاء اهوى أم شئتِ أنتِ * فمضيت فـــي صمتٍ مضيتِ**

أم هـــزَّ غصنك طائـــر * غيري فطرت إليـــه طرتِ**

وتركتِنـــــي شبحاً أمدْ * دُ إليـك ـــبي أين رحتِ**

وغــدوت كالمحمـوم لا * أهذي بغيـــر هـواكِ أنتِ**

أجري، أفرُّ، أتوه، أهـــ * رُبُ في الزحام يضيع صوتي**

وا ضيعتي أأنـــا تركْـ * تُكِ تذهبيــن بكلِّ صمــتِ**

ولعل الرابط الذي يجمع بين الشاعرين في هذه القضية هو رابط الرومانسية التي تتجلى في الشكوى والحنين إلى الماضي الجميل.

6 – الثورة على التقليد والدعوة إلى الحرية:

أما الثورة على التقليد فأكثر ما تبدو واضحة في شعر التجاني، لا سيما في قصيدة المعهد العلمي التي هاجم فيها شيوخه، ومنهجهم التقليدي العقيم، يترجم ذلك قوله: (3)

ولقيت من عنت الزيود مشاكلاً * وبكيت من عمرٍو ومن إعرابه**

ولم يلبث التجاني أن رأى المعهد غابة لا مجال فيها إلا للقويّ، ولعله يشير بذلك إلى سطوة الشيوخ وعدم تقبلهم لما جدَّ في عالم الفكر والعلم والأدب، وأنهم لا يألون جهداً في وضع الطلاب في قوالب جامدة متوارَثة في المنهج والأسلوب، وهذا ما لا يرضاه عقله النابه الطامح؛ لذلك لا عجب حين يصف التجاني مدير المعهد بالأسد الهائج وطلابه بالجبناء الذين يهابونه ويرهبونه، فيصف تلك الثورة التي بينه وبين شيوخ المعهد وأتباعهم من الطلاب ويصورها تصويراً له أبعاده ومراميه، وذلك حين قال: [3]

حتى رُميتُ ولستُ أول كــوكبٍ * نفس الزمان عليه فضل شهابه**

قالوا وأوجفت النفوس وأرجفت * هلعاً وهـاج وماج قسور غابه**

كفر ابن يوسف من شقي واعتدى * وبغـــى ولستُ بعابئٍ أو آبِهِ**

وطبيعيٌّ ألَّا يأبه التجاني لأمر هؤلاء الشيوخ التقليديين، ولا لنظرتهم العقيمة حيالَ الفكر والفلسفات والنظريات الحديثة، طبيعيٌّ أن تكون هذه حاله وهو الذي يتبرم بالخلوة وشيخها الجبَّار، وهو وقتها صبي لم يبلغ الحلم بعد! وكأنه يرى في ذلك أسلوباً ومنهجا فظّاً غليظاً لا يشبه التعليم ولا يناسبه، عبَّر عن هذا كله في شعره حيث يقول: [3]

هبَّ من نومــه يدغـدغ عينيـ * ـه مشيحاً بـــوجهه للصباحِ**

ساخطاً يلعن السماء وما في الـ * ـأرض من عالم ومن أشباحِ**

ومشى بارماً يدقِّـــــع رجليـ * ـه ويبكـــي بقلبه الملتاحِ**

ثورة صورت خوافـــي ما بيـ * ـن حنايا صبينا من ريـاحِ**

ورمى نظرةً إلـــى شيخه الجبْـ * ـبار مستنبطاً خفيَّ المناحي**

نظرةً فسَّرت منـــازع عينيـ * ـه ونمَّت عمَّا به من جراحِ**

وإدريس جمَّاع لم يكن يصرح في شعره بثورة على التقليد على نحو ما نجد عند التجاني؛ ولربما يرجع ذلك الأمر إلى النصيب الأوفر الذي حظي به جمَّاع وكثيرٌ من أبناء جيله من التعليم، ورغم ذلك لم يخلُ شعره من إشارات إلى احترام الفكر وإكبار البحث، جاءت هذه المعاني وغيرها في نشيده لجامعة الخرطوم، منه: [1]

غمرتنا هــذه الدَّ * ارُ إخاءً وسلامــا**

ألَّفت بين عقــولٍ * تمنح الفكر احتراما**

وروت من خلق العلْـ * ـمِ نفوساً تتسامــى**

تُكبر البحثَ وتمشي * في هدى العلم دواما**

وأما دعوتهما إلى الحرية ونبذ الظلم فأمر يشاركهما فيه معظم من عاصرهما من الشعراء، ولم تكن هناك مدعاة لعقد موازنة بينهما في هذا الجانب، ولكنه أمرٌ يذكر للإشارة والتنبيه. والتجاني معروفٌ عنه ثورته التي أدت إلى إضراب عمال شركة (سنجر) عن العمل بسبب تخفيض مرتبات السودانيين والإبقاء على مرتبات الأجانب، عبَّر عن ذلك في قصيدته المشهورة (ثورة)، منها: [3]

قف بنا نملأ البلاد حماسا * ونقوّضْ من ركنها المرجحنِّ**

هي للنازحين مــورد جودٍ * وهي للآهليـــن مبعث ضنِّ**

يستدرُّ الأجانب الخير منها * والثراء العريض من غير منِّ**

أبطرتهم بلادنا فتعالَى ابـــ * ـنُ أثينا واستكبر (الأرمنِّي)**

وكان جمَّاع أكثر مناداة بالحرية والاستقلال، بل كان يمتلئ حماسةً إلى حدِّ الثمالة، وإن أردنا آيةً على ذلك فلنقف عند قوله: [1]

أشعلوها فلن نهونْ * وليكن بعدُ مـــا يكونْ**

صيحةُ الحُرِّ صيحةٌ * تتداعى لها السجـــونْ**

في قلوب الشباب نا * رُ وفـــي عزمه أتونْ**

فالجهادَ الجهادَ مـــا * دام في الصرح غاصبونْ**

كلنا عزمـــةٌ وإمْـ * ـما المنايـــا أو المنونْ**

7- تمجيد بعض القدوات:

تناول التجاني وجمَّاع بعض القدوات بالمدح والثناء، واتفقا في ذلك على تمجيد شخصيات بعينها، كالإمام المهدي، فجعلاه قدوة حسنة ونبراساً يهتدى بنوره، فصوَّره التجاني في صورة الفقير الزاهد والنبي الذي أتى قومه بالبشرى. يقول:[3]

وُلدت ثورة البلاد على أحـ * ـضان كوخٍ وفي ذراعي فقيرِ**

أيُّهذا النبيُّ مرحـــى بمغْـ * ـداك إلينـا، أهلاً بلقيا البشيرِ**

ولمَّا كان جمَّاع مشحوناً بالثورة وكراهية الاستعمار فقد صوَّر المهديَّ في صورة القائد المظفَّر الذي خلَّص شعبه من براثن المستعمر وأنزل بلاده قُنن المجد، يقول: [1]

وملأتُ نفسي من حديثٍ خالدٍ * من سيرة المهديّ هذا الأروعِ**

قاد البلاد إلى الحياة مظفراً * يطأ الطغـاة بجيشه المتجمعِ**

أمحرر السودان صانع أمَّسه * أنزلت قومك في المحلِّ الأرفعِ**

مما سبقَ عرضُه من نقاط التقاء بين هذين الشاعرين يبدوانِ كأنهما خيوطٌ رقيقة ولكنها ستبدو مُبرمةً عندما يلتقيان في احتفائهما بالجمال تعلقاً وافتتاناً وهياماً وحبّاً سرمديّاً خالصاً.

المبحث الثالث: الجمال من خلال شعر التجاني وجمَّاع:

الجَمال أمرٌ نسبيٌّ ولا غروَ في ذلك؛ فالذي يراه صاحب البادية من جَمالٍ في صحرائه بحصبائها وسهولها ونباتها وحيوانها قد لا يرى فيه أرباب المدنية جمالاً يروقهم، وما يُعجب المتمدنين بطبعهم ليس من المحتَّم أن يعجب أهل البادية، ولكنهما يتذوقان الجمال ويستمتعان به، كلٌّ على شاكلته وذوقه وطبعه، ومن هنا تتأتى صعوبة وضع تعريف دقيقٍ للجمال، والأمر هنا أشبه بظلال الأشياء التي تقرّب إليك صور الأشكال فإذا هي هي.

وهكذا تتفاوت نظرة الناس للجمال وتختلف؛ لاختلاف بيئاتهم وأعراقهم وثقافاتهم، فالعربي في جاهليته يعرف الجمال معرفة اختلف النُّقاد حول كنهها؛ فقد وصفها بعضهم بأنها: " ساذجة يشترك فيها جميع الناس، معرفة غير ناتجة عن تأمُّل، فهو جمال الحسّ الظاهر " [8] بينما يذهب آخرون لتخطئة تلك النظرة ذاكرين أنَّ العرب من الجاهلية عرفوا الجمال المعنوي إلى جانب الجمال الحسي، وقد تمثل الجمال المعنوي عندهم في الكرم والشجاعة والصبر والبطولة والذكاء وما إلى ذلك. [4]

وبالنظر في الفلسفات الغربية التي تناولت الجمال وعبرت عنه يلاحظ أنها نظرت إليه نظرة ذاتية وأخرى مثالية؛ فأرسطو حاول أن يربط بين الجمال والأخلاق، وأفلاطون عمل على ربطه بعالم الحقيقة المثالية الخالدة جاعلاً من الجمال المحسوس ظلالاً للجمال الروحي. [2]

وأما الجمال في الفلسفة الغربية الحديثة فقد استطاع "كانط" أن يحرره من المنفعة، بحيث يصبح شعوراً خالصاً لا غاية وراءه. [2] وفي الدراسات العربية الحديثة ربط العقَّاد الجمال بالحرية، فلا شعور إنساني يوافق الشعور بالجمال كما يوافقه الشعور بالانطلاق والاسترسال واطِّراد الفكر والخاطر والإحساس.[8]

ولعلَّ ما جاء من حديث العقَّاد من ربطٍ للجمال بالحرية له ظلال واضحة في شعر كلٍّ من التجاني يوسف بشير وإدريس جمَّاع على حدٍّ سواء؛ إذ كلاهما يقدِّس الجمال ويتعبده، ويمثل أمامه مثول الصوفي في حضرة شيخه، لا يصده مانع من دين أو عُرف أو تقاليد، ولتحري ذلك – واقعاً – فلننظر إلى قول التجاني: [3]

هي نفسي إشراقة في سمـــــاء الله تحبــو مع القرون وتبطي

خلصت للحياة من كل قيـــــدٍ * ومشت للزمان في غير شرط**

وهبت للجمـــــال أقدس عِقـدٍ * من أهازيجها وأكرم قُـــرط**

فنفس التجاني موهوبة للجمال حبّاً وتقديساً، بعد ما تخلصت من كل القيود، وتجاوزت الحدود والموانع، ولعل الأمر يبدو واضحاً في مثل قوله: [3]

آمنتُ بالحسن برداً * وبالصبابة نـــــارا**

وبالكنيـــسة عقدا * منضدا مــن عذارى**

وبالمسيح ومن طـا * فَ حوله واستجــارا**

إيمان من يعبد الحسـ * نَ في عيون النصارى**

والمحمل الأنسب لهذا الإيمان الذي وصفه هو ولع التجاني وولهه بالجمال ليس إلا؛ فالجمال يعجبه ويأسره ولو احتمى بالأماكن المقدسة، وقريب من هذا قوله: [3]

ولقد **تعلم الكنائس كم أنْـــ *** ـفِ مُدلَّ بها وخدٍّ مورَّدْ**

ولقد تعلم الكنـائس كم جفْـ * نٍ منضَّى وكم جمال منضَّدْ**

وإن تعجب لحال الجمال عند التجاني فقد سبقك هو إلى ذلك حيث قال: [3]

عجيب أنت يا قلبي فكم ذا * يهيب بك الجمال فتستجيبُ**

وجنَّ بك الهوى فهنا غريبٌ * علقت به ومن هنَّـا حبيبُ**

وتلك وفي معاصمها سوارٌ * وذاك وفي ترائبــه صليبُ**

والذي يعرف طبيعة هذه النفس المرهفة التي يحملها التجاني بين جنبيه، وما فيها من توق وشوقٍ للجمال – يجد له العذر في هذا الهيام وهذا التفاني، ويستطيع المرء أن ينظر إلى نفس التجاني عند مشاهدتها للجمال، في قوله: [3]

ربِّ ما أعذب الجمال وأحلى * موقفاً يسحق النفوس ومشهدْ**

رقصت في الفناء نفسي حتى * أوشكت مـــن يديَّ أن تتبدَّدْ**

وهو أمام الجمال ينسى نفسه ويفقد تفكيره ويظل مأخوذا بلا وعيٍ ولا فكرٍ. قال في ذلك: [3]

مرحى بمطلعك الجميــل وموقفي * إذ ذاك موقف شاخصٍ مذعورِ**

أُنسيتُ نفسي في الجمال وغبتُ مأ * خـوذ النواظر فيك عن تفكيرِ**

وأمَّا جمَّاع فلا يقلُّ عن التجاني في مثوله أمام الجمال واندهاشه به وتفانيه فيه، فانظر إلى حاله عند مشاهدة الجمال وتذوقه، يقول: [1]

حاسرُ الرأس عند كل جمالٍ * مستشفٌّ من كلِّ شيءٍ جمالا**

فهو في حضرة الجمال حاسر الرأس حبّاً وتقديساً وتأدباً، حاله في ذلك حال الصوفي أمام شيخه، وقد تنسيه النظرة الواحدة هيبته ووقاره وتجعله مأخوذ اللبِّ متيم الفؤاد، قال: [1]

هي نظرة تُنسي الوقا * رَ وتُسعد الروح المعنَّى**

دنياي أنتِ وفرحتــي * ومنـى الفؤادِ إذا تمنَّى**

يرى الباحثان أن فيما سبق دليل واضح على أنَّ الشاعرَين يشتركان في نظرتيهما للجمال حبّاً وهياماً وتقديساً، لا تمنعهما قيود ولا تصدهما حدود، وكأنهما خلُصا إلى أنَّ حبَّ الجمال سرٌّ أودع النفوس الرقيقة المرهفة؛ فتعبدته ربّاً لا تفارق محرابه. يقول التجاني: (3)

من ترى وزَّع المفاتن يا حُسْـ * ـنُ ومن ذا أوحى لنا أن نحبَّا**

من ترى علَّم القلوب هوى الحُسْـ * ـنِ وقال اعبدي من الجمال ربَّا**

ويوافقه جمَّاعٌ المعنى، فيقول: (1)

مَن أودع الأنفس سرَّ الحياة * وقال عيشي وأحبِّي الجمالا**

وقد توسع جمَّاع في فهم سرِّ الجمال وأسره لقلوب الموهوبين، وكلهم يعبرون عن الجمال وفق رؤيتهم الخاصة، ومهما اختلفت رؤاهم ومجالاتهم فهم متفقون على حبه والتعبير عنه، وكأنه كنزٌ ينقِّب عنه كلٌّ في مجاله. فالرسام يعبر عن الجمال ويبرزه لنا بطريقته الخاصة:

وانطلق الرسام تسعى خطاه * نحو مجالي الحسن نحو التلال**

واللحن الشجيُّ هو قمة الجمال في نفس العازف:

وأصلح العازف مزماره * وقال في اللحن جمال الوجود**

وحبُّ المعرفة غاية الجمال عند الفيلسوف:

وقال في حلقته الفيلسوف * إنَّ الجمال الحقَّ في المعرفة**

والحقُّ والخيرُ هما صنوا الجمال في عرف الأنبياء:

وغمر الكون سنى الأنبياء * في الحقِّ والخير يرون الجمالْ**

وتصوير الخير والتعبير عنه بفنٍّ رائع هو غاية الجمال عند الشعراء:

وسبَّح الشاعر فيما نظــرْ * وقال في نفسي يعيش الجميعْ**

من حرم الخير أسوق الصُّور * وأنفح الخيـــــر بفنٍّ رفيعْ**

والاكتشاف العلمي هو عين الجمال في نظر العالِم:

وغرق العالِم فــي المختبرْ * يسوقه كشفٌ بعيد المنالْ**

وقال كشف العلم في ناظري * فيه جمالٌ وهو أرقى مثالْ**

ثمَّ يجيء دور المعلم الذي يرى أن الرسالة التي يحملها هي حقيقة الجمال:

ثمَّ وعى الحقيقــــة المعلِّمُ * وقال يجري كلكم في دمي**

نهجي جمال الحقِّ وهو أعظم * يشرق في فعلي وفي تكلُّمي**

وفي نهاية الأمر يلخص جمَّاع فلسفته العامة في الجمال وقد استلهمها من نظرة هؤلاء العباقرة، فلم يقدِّم نظرة على أخرى، بل رأى أنها جميعاً تمثل الجمال، يقول: [1]

ثمَّ التقوا في موكب لا تراه * إلا وفي نفسك عطر الورودْ**

فأصغت الدنيا لهم في انتباه * تحت الأناشيد وخفق البنودْ**

قالت لهم أنتُمُ جمــال الحياة * فاندفعوا هذا طريق الخلودْ**

فالجمال يجرى من جمَّاع مجرى الدم، وهو طريق الخلود وإن تعددت صوره وبواعثه، واختلفت نظرات الناس إليه؛ لذلك يرى أنَّ من لا يبصر جمال الحياة ويتذوقه فمقامه فيها سدًى لا فائدة منه، يقول: [1]

إنَّ الحياة بسحرها * نغمٌ ونحن لها صدى**

من مات فيه جمالها * فمقامه فيهـــا سدى**

ولا يحقق مبتغى جمَّاع هذا إلا التجاني، وهو القائل: [3]

كل جلال الحسن أو سحره * في دمعة يخطفها الخاطر**

أو لفتةٍ عجلَى وفـي وثبةٍ * يفتأُ مجنوناً بها الشـاعر**

ولعلَّ تنقيبهما عن الجمال وبحثهما الدؤوب عنه في كل دقيقة من دقائق الكون والحياة – جعلهما يرتبطان بالطبيعة حبّاً ومناجاةً واستئناساً بها. فعظمة النيل وجلاله يجعلان التجاني يقف عند أعظم خصائص نهر النيل وهي أنه ينبع من الجنة، يقول: [3]

أنت يا نيل يا سليل الفراديـ * سِ نبيلٌ موفَّقٌ فـي مسابكْ**

حضنتك الأملاك في جنَّة الخلْـ * ـلدِ ورفَّت على وضيء عبابكْ**

بل تصل عظمة النيل في نفس التجاني إلى حدِّ السجود له ذهولاً بجماله الذي لا يدانيه جمالُ التاج ولا زهوُ الإمارة، قال: [3]

سجدوا ذاهلين لا روعة التا * جِ ولا زهوَ إمرة خلف بابكْ**

فكأن القلوب ممـا استمدَّت * سكرى مسحورة من شرابكْ**

ثمَّ يختتم قوله عن النيل بهذا الارتباط الوثيق بالنيل الذي يجري حبه في شرايين التجاني وأنفاسه، يقول: [3]

أنت في مسلك الدماء وفي الأنْـ * ـفاسِ تجري مدوِّياً في انسيابكْ**

وإذا كان هذا هو حبُّه للنيل وإعجابه به فلا غروَ أن يهيم بجزيرة توتي تلك الدرة التي يزدان بها صدر النيل، فلا يفتأ يصفها قائلاً: [3]

يا درة حفَّها النيل واحتواهـــا البرُّ

صحا الدجى وتغشَّاك في الأسرَّة فجرُ

وصـاح بين الرُّبى الغرِّ عبقريٌّ أغرُّ

وطـاف حولك ركبٌ من الكراكيِّ غرُّ

وكان يرى في تلك الصوَر الطبيعية التي تمازجت في توتي وشكلت جمالها – مزيجاً من الجمال والسحر، فيقول: [3]

كم ذا تمازج فنٌّ على يديك وسحرُ

ثمَّ مضى التجاني في شعره يفصِّل صور الجمال في توتي، وكأنه رسام بارع. وبلغ ولهُه بجمال الطبيعة وسحرها مبلغاً عظيماً، فهو يحبها وإن طغت عليه واستبدت به! فقد اكترى زورقاً في ضحى يومٍ ليمرح به على النيل فتقاذفته الأمواج حتى أشرف على الهلاك، ورغم ذلك ظلَّ يستعطف النيل مُظْهِراً هيبته وعظمته، يقول: [3]

رفقاً بمن آواك إلهامه * وصاغ في صدرك وحي الجمالْ**

آماله يا نيل أحلامــه * شبابــه الغضَّ الوريفَ الظلالْ**

ثم يترفقه ويستعطفه ويرجوه رجاء المحبِّ الخاضع، يقول: [3]

هبْك ابتلعت الزورق الوادعا * فـــي مــوجةٍ منك فمن يبلعك؟**

أو هبك أدبرتَ به راجعــاً * للشطِّ يا نيـــــل فمن يمنعكْ؟**

أو هبك أطعمت به جائعــاً * فــي جوفك الضخم فهـل يُشبعك؟**

رفقا به واستبقه يـــانعاً * أن ضمنت أضلعـــــه أضلعكْ**

وهذا الحبُّ الذي أولاه التجاني لجمال الطبيعة واستئناسه به، يوازيه حبٌّ جمَّاع وولهُه، فهو يصف الطبيعة الفاتنة للنظر العابثة بالقلب ، يقول: [1]

نبع الحياة يفيض سمــ * حــاً بالشعور وبالفكرْ**

وعلــى شواطئــه الطبيعـ * ــة وهي فتنة مـن نظرْ**

ولذلك عندما تصدأ نفسه يجتلي وجه الطبيعة يستلهم فنَّه منها وتشفى بها نفسه، يقول: [1]

عندما تصدأ نفسي * أجتلي وجه الطبيعةْ**

أقبس الفنَّ وأبغي * نشوة منهـا رفيعةْ**

وعندما زار جمَّاع القضارف ورأى روعة الطبيعة حواليها ألهمته هذه الأبيات ؛ لطبعه الغالب في حب الجمال واستشعاره، يقول : [1]

لك يا قضـــارف روعة * تركت شِعاب النفس سكرى**

قامت حـــواليك الهضا * ب فأظـــهرت تيهاً وكبرا**

رفَّت مـــن الأفق البعيـ * د لأعين الـــرواد بـــشرى**

زرقاء تحسب أنـــها غيـ * م تجمَّع بـــــعد مسرى**

حـــتى إذا انحسر القنا * ع تجسَّمت للعين صـــخرا**

ولا تفتأ نفسه المتعطشة إلى الجمال تبحث في شغف ونهم عن كل شيء في الطبيعة يوحي بالجمال، فانظر إلى قوله : [1]

فاسمع لأنغام الطبيعـ * ـة مازجت لـحن البشر**

والزهـرة العذراء تنـ * ظر للتدفق فـــي خضر**

هو عالـــم من حسنه * يوحي الجمال المبتكر**

ولذلك كان طبيعياً أن يصطحب جماعٌ النيلَ– وهو يمخر في رحلته إلى مصبه– في قصيدة طويلة يبرز فيها مفاتن الجمال التي على ضفتيه، يقول: [1]

ينساب مـــن ربوة عذراء ضاحكة * في كلِّ مغنًى بها للسحر إيوان**

حيث الطبيعة في شرخ الصبا ولها * مـــن المفاتن أتراب وأقران**

وشاحها الشفق الـــزاهي وملعبها * سهلٌ نضير وآكـــام وقيعان**

وإذا تجاوزنا حبَّ الشاعرين لجمال الطبيعة وكلفهما بها ، وجدناهما كلفين بجمال العيون وسحرها –خاصة– ولكنهما سمَوا بوصف هذا الجمال الحسي للعيون إلى ما وراءه من إشراقات وأسرار ومعانٍ مجتمعة كلها في عقد منضد هو لا شك عقد الحب والوله بالجمال لا محالة ، يقول التجاني : [3]

عيناك هاتان وقد صيغتا * من كبرياء الحسن أو مجده**

عيناك هاتان وما فيهما * مـــن هادئ السحر ومحتده**

كمضمر سرَّاً ومن بينه * مغالـق الكون ولـــم يبده**

ويصل الأمر به إلى أن يقول : [3]

إنَّ لي من وراء عينيك هاتـ * ين مصلَّى وفيهما لي مخدع**

فيهما لـــوعة القلوب ونعما * ها وكم فيهما حديث موقع**

وليس بعيداً من ذلك قول جماع، بل كيف به وقد قال : [1]

ونظرت في عينيك آ * فاقاً وأسراراً ومعنى**

وعطفاً على ما سبق فإنهما يسموان بالجمال الحسي إلى مراقٍ روحانية وإلى معانٍ مثالية نبيلة.بل وقد ذهبا إلى حد بعيد في تعاملهما معه، وحاولا جاهدين أن يدعوَا إلى حرية الجمال ويدافعا عنه، وخير مثال لذلك قصيدة "القمر المجنون" للتجاني يوسف بشير، وفيها يحكي عن قصة فتاة جميلة أجبرها أهلها على الزواج من فتى لا تحبه، فدافع التجاني عنها وعن هذا الجمال المعتدَى عليه بباعث العادات والتقاليد، يقول : [3]

يا جمالاً جنَّ من ظلم الوجود * بعد أن جنَّ به الكون وهاما**

أفإن لم ترضَ في الحب قيود * هكذا يرضى به الأهل مقاما**

فتحسر التجاني على هذا الجمال المَبيع، ثم أنهى قصيدته موصياً بإشاعة الجمال قائلاً: [3]

وزِّعي يا قمرُ الحُسن كما * وزَّع البدرُ على القوم الشُّعاعا**

وهبي العميان منه مثلما * جعل الله الضحى حظاً مشاعا**

وأما جمَّاع فكانت دعوته لحرية الجمال ومخاطبته للحبيب الذي حجب جماله– فيها شيء من الرقة والعتاب الجميل، فأبت نفسه أن يصير للجمال والحسن قيدٌ يحتبسه فيحجبه، يقول:[1]

قيدت حسنك في الخدو * ر وصنته لما تجنّى**

وحجبته فحجبت سحراً نا * طقا وحجبت كونا**

وأبيت إلا أن تشيْـ * ـيِد للجمال الحرِّ سجنا**

وإذا كان هذا حال الشاعرين مع الجمال فليس من عجب في شيء أن يكون الجمال مصدر شفاء لهما يروق أنفسهما وتطيب به خواطرهما، يقول التجاني في هذا المعنى :[3]

قلب رمته السنون * بين مراقي الجبال**

ملء فضاء الظنون * ملء سماء الخيال**

تنال منه العيون * ويطَّبيه الجمال**

وأما جمَّاع فنظرة واحدة إلى جمال الحبيب كفيلة بإسعاد روحه المُعنَّاة ، يبدو هذا المعنى في قوله :[1]

هي نظرة تنسي الوقا * ر وتسعد الروح المُعنَّى**

وقد انتهى الأمر بالشاعرين في تعاطيهما للجمال وولههما به إلى تقديسه وتعظيمه، يقول التجاني : [3]

وعبدناك يا جمال وصغنا * لك أنفاسنا هياماً وحبَّا**

ووهبنا لك الحياة وفجَّرْ * نا ينابيعها لعينيك قُربى**

بل وذهب في تقديسه للجمال أن قدّم نفسه قرباناً وعوذاً له ، يقول : [3]

عوّذا الحُسنَ بالرقي أو خذوني * أنا تعويذة لكعبة روحـــي**

قربوها مجامراً أنا وحـــــدي * عوذٌ للجمال مـن كلِّ روح**

واعصروا قلبي المفزع للحـــ * سن أمـــاناً وعوذوه بنوح**

هو قلبي للجمال قُـربى إذا كـا * ن فؤادٌ على الهوى بشحيح**

وليس من عجب في أن يصف جمَّاع الجمال – إذا احتجب عنه – بالسماء التي تتراءى ولكنها تعتصم ببعدها!.

أنتَ السماءُ بـدتْ لـــــنا * واستعصمت بالبـــعد عـنَّا** [1].

وهكذا يهيم التجاني وجمّاع بالجمال في شتَّى صوره ومختلِف مظاهره، فيصوِّران هذا الهيام شعراً خالداً ينبض بالحياة ويعبِّر عن تلك الأنفس المرهفة التي بين جنبيهما.

الخاتمة : بعد هذا التطواف مع الجمال بين التجاني يوسف بشير وإدريس محمد جمَّاع خلُص الباحثان إلى عدة نتائج أوصلهما إليها البحث، تتمثَّل في أنَّ هذين الشاعرين:

- بينهما تشابهٌ واضحٌ في نظرة كلٍّ منهما للفن والحياة عامة، والمعاناة في الحياة بؤساً وألما.
- يلتقيان في الدعوة إلى الحرية والثورة على الظلم ونبذ التقليد.
- لهما نزوعٌ صوفي جعلهما يسموان بالحب والجمال إلى روحانية ومثالية عالية.
- إنهما مأخوذان بالجمال مندهشان به لا يصدهما عنه مانع من دين ولا عرف أو تقاليد.
- كلاهما يبحث عن الجمال في كل دقيقة من دقائق الكون لتصويره ووصفه والاستمتاع به.
- سموَا بالجمال الإنسانيّ الحسيّ إلى ما وراءه من إشراقات وأسرارٍ ومعانٍ.
- دعوَا إلى حرية الجمال والدفاع عنه والحزن عليه إذا لم يلقَ حظه من التحرر والتقدير.
- أحبَّا الجمال وولِهَا به إلى درجة التعبد والتقديس وتقديم النفس له قرباناً وعوذاً.
- كلاهما يشفيه الجمال ويروق نفسه ويطيّب خاطره.

المصادر والمراجع :

1- إدريس جمَّاع، (1984م) ديوان لحظات باقية، ، دار الفكر، الخرطوم، ط3، ص: 17 ، 101، 18، 129، 33، 35، 76، 86، 117، 64، 88، 64، 103، 65، 129، 127، 38، 26، 78، 117، 102، 93، 94، 95، 66، 108، 19، 111، 99، 39، 102، 117.

2 – أميرة حلمي مطر، (بدون تاريخ) فلسفة الجمال، دار المعارف، القاهرة، ب ط، ص: 34، 41.

3 – التجاني يوسف بشير، (2010م) ديوان إشراقة، ، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط3. ص: 80، 12، 70، 71، 70، 34، 21، 80، 87، 82، 84، 106، 107، 102، 93، 28، 29، 72، 84، 83، 81، 75، 58، 40، 63، 38، 65، 52، 34، 146، 136، 136، 47، 40، 46.

4 – جامعة بنجاب، (2011م) مجلة القسم العربي، لاهور باكستان، العدد18. ص: 129.

5 – دار الوثائق القومية المركزية،(1969م) مجلة الفجر، الخرطوم. ص: 348.

6 – صديق البادي، (بدون تاريخ) من رواد وأعلام التعليم في السودان، ، ب ن، ب ط. ص: 159، 160، 160، 160، 161.

7 – عباس محمود العقاد،(بدون تاريخ) هذه الشجرة، دار النهضة، القاهرة، ب ط. ص: 19.

8 – عز الدين إسماعيل، (2000م) الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ب ط. ص: 109.

9 – محجوب عمر باشري، (1991م) رواد الفكر السوداني، دار الجيل بيروت، ط1. ص: 73، 73، 73، 73.

10 – محمد عبد الرحيم، (بدون تاريخ) نفثات اليراع، شركة الطبع والنشر، الخرطوم. ص: 223.

11 – الهادي آدم، (بدون تاريخ) ديوان كوخ الأشواق، مكتبة الكاملابي، القاهرة. بلا طبعة، ص: 78.